سبب تسميتهم بالمعتزلة

هناك أكثر من قول ورأي في هذا الشأن، إلا أن الرأي الأكثر شيوعًا هو أن تسميتهم جاءت بعد اعتزال واصل بن عطاء لمجلس شيخه الحسن البصري بعد جدال دار بينهما حول الحكم على "مرتكب الكبيرة"، حيث إن واصل لم يقتنع بأنه ليس كافرًا وقال هو في "منزلة بين منزلتين" أي لا مؤمن ولا كافر، وبسبب هذه الإجابة اعتزل مجلس الحسن البصري، وقام بتأسيس حلقة علمية وأصبح له أتباع ومقتنعون باجتهاداته، وحينها قال الحسن البصري "اعتزلنا واصل"، ومن هنا سميت هذه الفرقة باسم المعتزلة.

أهمية الفكر الاعتزالي وأهم ملامحه

تنبع أهمية المعتزلة من كونهم ركزوا على قيمتين أو مبدأين أساسيين:

- حرية الاختيار للإنسان ومسؤوليته عن أعماله.
- إعطاء مكانة كبرى للعقل البشري.

وهو ما يتجلى في جل أفكارهم التي أكدت على هذه المبادئ، وركزت عليها ودافعت عنها، وفي معرض تبنيهم لهذه الأفكار ودفاعهم عنها، خاضوا الكثير من المناظرات التي وثقتها لنا الكثير من كتب التراث الإسلامي وخصوصًا تلك التي تناولت الفرق والمذاهب ككتاب "الملل والنحل" للشهرستاني، وكتاب "الفرْق بين الفرق" لعبد القاهر البغدادي، وكتب الإمام الجاحظ وخصوصًا كتابيّ رسائل الجاحظ، والحيوان، حيث تناول الكثير من أفكارهم في كتبه، وكذلك كتب القاضي عبد الجبار وخصوصًا كتابيّ "شرح الأصول الخمسة" و"المغني في أبواب التوحيد والعدل" والذي يعد أهم الكتب التي تناولت الفكر الاعتزالي بالشرح والتفصيل على الإطلاق.

ومن المناظرات ما كانت فيما بين أتباع المذهب أنفسهم، وهذا مما يدل على مساحة الحرية الواسعة التي كانوا يتمتعون بها تحت مظلة المذهب الواحد، حيث لم يكفروا بعضهم البعض ولم يدعوا لقتل بعضهم رغم وجود اختلاف كبير بينهم في كثير من الآراء، إلا ما ندر من مثل هذه التصرفات التي كانت في معظمها مجرد رد فعل وناتجة عن لحظة غضب لا أكثر.

وكذلك يذكر لنا التاريخ أن شخصية مثل "ابن الرواندي" الذي كان معتزليًا ثم خرج على المعتزلة وحاربهم وألّف كتابًا شنّع به عليهم أسماه "فضيحة المعتزلة"، ومع كل ما بدر من جهته إلا أن المعتزلة اكتفوا فقط بالرد عليه بأن قام أحدهم وهو أبو القاسم الخياط بتأليف كتاب أسماه "الانتصار في الرد على ابن الرواندي"، ومن ناحية أخرى فمن المناظرات ما كانت مع خصومهم من أهل المذاهب الأخرى كالسنة والشيعة والجهمية والمرجئة... إلخ.

ولتكوين صورة أوضح عن هذه الفرقة وهذا الفكر العقلاني، سأقوم بسرد بعض هذه الأفكار والآراء التي ميزت هذه الفرقة عن غيرها من الفرق، والتي تعد من أبرز ملامحها:

أولًا: اعتمدت المعتزلة على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل تحت شعار "العقل أول الأدلة"، وقالوا بأن العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي، فيما يعرف بـ "التحسين والتقبيح العقليان".

ثانيًا: كانت المعتزلة حذرة من ناحية قبول الأحاديث النبوية الشريفة، وشكوا في قيمتها الثبوتية، فلم يستخدموها في مصنفاتهم، إلا في حدود ضيقة، وذلك بسبب انتشار الوضع والكذب في الحديث في زمانهم، فوضعوا قواعد صارمة لقبول الأحاديث، مما ترتب عليه في نهاية المطاف أنهم أخذوا بيسر يسير جدًا من الأحاديث النبوية.

ثالثًا: يؤمن المعتزلة أن الإنسان مسؤول عن كل ما يفعل، وأن مسؤوليته تقتضي أن يكون حرًا في اختيار طريقه وأفعاله ومعتقداته، وإلا فستكون محاسبته على ما لم يكن له خيار فيه، ظلم.

وهذا مما لا يستقيم عندهم مع عدالة الله سبحانه وتعالى، فالله منزّه من أن يضاف إليه شرّ أو ظلم، فاتفقوا على أنّ العبد خالق لأفعاله أي أنه حر تمامًا في قيامه بها خيرها وشرّها، مستحق على ما يفعله ثوابًا أو عقابًا في الدار الآخرة.

رابعًا: خلق القران: يرى المعتزلة أنّ القرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، مخلوق له وليس بقديم، وأن وصفه بالقدم فيه إثبات أن مع الله تعالى قديمًا آخر، على اعتبار أن الله هو الوحيد القديم الأزلي، ولم يكن معه أحد قبل بدء الخليقة.

ويقولون إن المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن الكريم هو كلام الله الأزلي، وليس مخلوقًا من مخلوقات الله - حيث إن كل ما عدا الله فهو مخلوق -، لا يختلفون كثيرًا عن المسيحيين، الذين يقولون إن المسيح هو كلمة الله المنبثقة من الأب منذ الأزل، وذلك مما لا يتفق مع تصورهم للتوحيد الذي يعد حجر الأساس في العقيدة الإسلامية.

ولتوضيح ما يقع من لبس في كثير من الأحيان حول مصطلح "خلق القرآن"، فهذا المصطلح يعني ببساطة أن القرآن محدث أي حديث وليس قديم وأزلي، حيث لم يسبق له وجود قبل أن أنزل بواسطة الوحي على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - فالخلق في لغة العرب يأتي بمعنى الإحداث، فنقول مثلًا خلق فعله: أي قام به وأداه بنفسه، وهنا يأتي مصطلح "القرآن مخلوق" بمعنى أنه محدث.

خامسًا: أنكروا شفاعة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأهل الكبائر من أمته، ورفضوا فكرة أن الله سيتجاوز عن المعاصي والكبائر التي يرتكبها الإنسان كالقتل والسرقة والزنا... إلخ، وأنكروا كرامات الأولياء، وقالوا لو ثبتت كرامات الأولياء لأشتبه الولي بالنبي!

سادسًا: نتيجةً لإمعان العقل عندهم، كان الإمام المعتزلي عبد الرحمن بن كيسان يقول في معرض رده على آراء لفقهاء آخرين: "إن دية المرأة كديّة الرجل، وإن نكاح الصغار لا يجوز"، وأيضًا كان الإمام ثمامة بن الأشرس لا يجيز السبي، ويستشهد بالآية "فإما منا بعد وإما فداء" أي أن تمن عليهم بإطلاقهم، أو تفتديهم بأسرى لك.

كما اتّفقوا على نفي رؤية الله بالأبصار في الجنة، ونفي التشبيه عنه من كلّ وجه، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها، مؤسسين كلامهم هذا على قوله تعالى: "لا تدركه الأبصار"، ومؤولين الآية الكريمة: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة" أي أن النظر جاء هنا بمعنى الانتظار، فالمؤمنون ينتظرون الوعد الذي وعدهم الله به في الآخرة، وليس بمعنى النظر البصري كما ذهب خصومهم.

وكان إبراهيم النظّام، أستاذ الجاحظ وأحد أكبر مفكري المعتزلة، وأصحابه "وهم من أكابر المعتزلة" ينكرون حد الرجم، كما أنكر أبو مسلم الأصفهاني النسخ في القرآن، وعن الإجماع يقول النظّام: "إن الإجماع ليس بحجة في الشرع، وكذلك القياس في الأحكام الشرعية لا يجوز أن يكون حجة".

وفي إعلاء شأن المرأة، يقول الجاحظ: "ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل: إن النساء فوق الرجال، أو دونهم بطبقة أو طبقتين، أو بأكثر، ولكنا رأينا ناسًا يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الاحتقار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن"، وكذلك فقد قال الفقيهان المعتزليان أبو بكر الأصم وابن علية: "إن دية المرأة مثل دية الرجل".